أُشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ..

في إحدى ليالي الشتاء القارس، الأمطار تغزو الشوارع فتعيق المارة، كان (منير) -الطبيب الوافد من المدينة- يلوم نفسه بشدة:

_ لماذا لم أنتظر الصباحَ؟!

بعد عناء وصل إلى المكان الذي قصد، حلّ التراب ضيفًا ثقيلًا على جميع الأسطح، كما استوطنت الأركانَ خيوطُ العنكبوت، فبدا البيت قديمًا مهجورًا رغم أن جدرانه المتينة توحي بغير ذلك.

سمعَ صوتًا، اعتقدَ أنه (هاشم) -التمرجي الذي يعمل في عيادته بالمدينة- أطال النّظر حيث مصدر الصوت، إلا أن الضوء الخافت عند مدخل البيت لم يُمكّنه من رؤية شيء، بعد لحظاتٍ تكرَّر الصوت نفسه، يأتي هذه المرة من إحدى الغرف، اتَّجه بخطوات متثاقلة ناحية الغرفة المغلقة، نفسها طبقات التراب وبيوت العنكبوت، غير أن زجاج النافذة كان مكسورًا، وعلى الأرض وقع أقدام مبعثرة لم يتمكن من تحديد هويتها.

لا مفرَّ من قضاء ما تبقى من الليل هنا وسط الأجواء الترابية، ألقى بجسده على أحد الكراسي القابعة في الغرفة، حاول أن يستسلم للنوم بعد هذه الرحلة المرهقة، لكن الهمَّ طرق باب قلبه، فتذكر مشادَّته مع أخيه الأصغر (حسين)، لقد تشاجرا اليوم لأول مرة مشاجرة حادّة انتهت بصفعة منه على وجه أخيه..!

في الصباح.. انقطع المطر، وأشرقت الأرض بنور ربها، كان (هاشم) رجلًا قصيرًا بدينًا، تتلألأ في وجهه ملامح الطيبة، يحدث نفسه وهو يقطع الطريق الزراعي متّجهًا إلى البيت الذي سيصبح مقرًا لأول عيادة طبية في القرية:

_ سيرتاح أهل القرية أخيرًا من تعب الانتظار أمام الوحدة التي يأتي طبيبها مرة ويغيب عشرة، سيصبح ذلك البيت الذي يُخِيفَهُم مكانًا للراحة والشفاء، لن أترك البيت لابن العمدة يتخذه وكرًا لقذارته.

بحث (هاشم) عن عمال لنظافة البيت، لم يذهب معه سوى (عوض) مُكرهًا مضطرًا، ولولا حاجته للجنيهات التي وعده بها (هاشم) ما كان ليخاطر هذه المخاطرة..!

_ دعك من هذه الخرافات يا عوض، فكّر في الخير الذي سيعمّ على أهل القرية.

_ لولا العوز، ما كنت لأذهب معك.. الله يسترها.

استيقظ (منير) من نومه على وقع أقدام تهرول في الخارج، فاندفع ناحية باب الغرفة في هلع، فإذا بهاشم وعوض عند مدخل البيت قد وقفا مندهشَين عند رؤيته، وكانا قد فزعا حين وجدا الباب مفتوحًا ونور الغرفة مضاءً.

لما امتدت يد النظافة هنا، بدا البيت في صورته الحقيقية، بيت كبير يتكون من طابقين، لا زالت جدرانه تحتفظ برونقها ومتانتها، حاول (منير) أن يرتاح قليلًا، إلا أنه سمع أصواتًا مزعجة قادمة من الغرفة المجاورة، توجّه إلى هناك، لم يجد شيئًا، تذكر أن ذلك قد حدث الليلة الماضية، قرر أن يسأل (هاشمًا)، فوجده مستغرقًا في حديثه مع (عوض)..

_ لا بد أن تصارحه بحقيقة الأمر، أنت تغُشّه بهذا الشكل!

_ غش..! الدكتور منير لا يعترف بهذه الخرافات ولا يلقي لها بالًا.

بعد الانتهاء من عملهما، أخذ (عوض) أجرته المتّفق عليها وانصرف، واجه (منير) (هاشمًا) بما سمع، فلم يجد الأخير بُدًّا من المصارحة..

****

كان هذا البيت فيما مضى كجنة صغيرة على الأرض، يمتلئ بصنوف الأشجار والزهور التي ينتشر أريجها في كل البيت، ربّ الأسرة رجل من أغنياء القرية، مال وجاه وأربعة من الولد، ما كان يُعيبه -في نظر أهل القرية- إلا سوء علاقته بأخيه الفقير.

لم يكن يَقُضّ مضجع الرجل سوى التفكير في مصير ابنه الصغير (مروان) الذي يعاني من إعاقة ذهنية، عرضه على الأطباء، لكن دون جدوى، تقبلت الأم وضع ابنها فكانت تقضي جُلّ وقتها في رعايته، حتى ملك عليها حسّها، لكن الأب أضحى وكأنه أُسْقِط من حساباته تمامًا، أما الإخوة فكانوا بين مستثقل حمله، ونافر منه ناقم على انشغال الأم الدائم به..!

بعد وفاة الأب، بدأ الأبناء يفرّون من البيت واحدًا تلو الآخر؛ ليؤسس كل منهم حياته في بيته الخاص، بينما ظلّت الأم ترعى ابنها الذي بلغ من العمر عشرين عامًا، حتى اعترتها الشيخوخة وهاجمها الكبر، لم يكن يشغلها سوى مصير ابنها بعد رحيلها، من سيهتم به ويرعاه؟!

رحلت الأم، وظل الابن المسكين وحده في البيت الذي تحول إلى خراب بعد رحيل ربّته، أضحى (مروان) أسيرًا لإحسان ذوي المروءة الذين قَلَّ عددهم يومًا بعد يوم؛ نكاية في الإخوة الذين تركوا القرية ولا يأتون إلا باتصال من أحد الجيران حين تتأزم حالة أخيهم.

أصبح (مروان) ذا مظهر يعرفه به أهل القرية جميعًا، أضحى كمتشرد لا مأوى له، ملابس أكلها الاهمال، وجه خاصمه الماء وكساه الوهن، وقدمان حافيتان أكثر الوقت، إلى أن قرر الأخوة اتخاذ مربية لأخيهم، أتوا بها من البندر ذات يوم، لم تكن تفقه شيئًا في التعامل مع حالته، اقتصر دورها على نظافة البيت وإعداد الطعام، إلا أنها كانت تنقطع عنه أيامًا ثم تعود.

كنت عائدًا إلى بيتي ذات مساء، فرأيت نافذة غرفته مفتوحة، أزحت الستار، رأيته معلّقًا من رقبته، وقد تجمع حوله الذباب، ظللت أيامًا محل اتهام الشرطة، كذلك كانت تلك الخادمة محلًا للاتهام، حتى ثبت بعد ذلك أنه مات منتحرًا..!

منذ ذلك اليوم يسكن في عقول الناس اعتقاد بإقامة الجن والعفاريت هنا؛ لأن أصحاب البيت لم يقوموا بإحضار قس؛ يُخرج روح المقتول، كما اعتاد أهل القرية.

تنهد (منير) -وهو يحاول إخفاء دموعه عن (هاشم)-، ثم قال:

_ الأخ عادة ما يشدّ أزر أخيه..!

_ كان أبوهم كذلك مع أخيه، كما تدين تدان.

التفت (منير) -فجأة- كمن تذكر شيئًا، ثم قال:

_ كما قلتَ يا هاشم أنا لا أعترف بتلك الخرافات، لكنني مذ دخولي البيت وأنا أسمع أصواتًا مزعجة، هل...

_ يا دكتور، لن تكون تلك الأصوات إلا بفعل ابن العمدة الذي يتخذ من البيت وكرًا لارتكاب جرائمه.

ما إن انتهيا من حديثهما حتى سمعا طرقات متتابعة، فسارع (هاشم) ليعرف من الزائر، فإذا به (حسين)، يقف أمام الباب، لم يصدق (منير) عينيه، أسرع نحو أخيه، واحتضنه بحرارة.